مراوغة الحياة والموت!

كيف انقلبت الدنيا راسا على عقب، وعقبا على رأس، في لحظة بعد تاريخ ٧ أكتوبر، وكأن القيامة قد قامت ولا أحد الى الان استوعب ما حدث او ما يحدث او ما سيحدث. واصبح الموت، ليس فوق رؤوسنا فحسب، ولكن يحيط بنا من كل جانب! أين المفر؟ لا مفر والزنانة فوق راسك تصب ازيزها في اذنيك صبا، صوتها يتغلغل في كل كيانك يدفعك الي الجنون مثل جهاز نحت الأسنان لدى طبيب الأسنان، بصوته الحاد القاتل. تخيل ان تستمر بسماعه اياماً وشهوراً متواصلة لا تنتهي. مع فارق ان صوت الزنانة اعلى واعلم - فالزنانة تستطيع تصويرك عاريا او كاسيا، صاحيا ام نائما، بالشارع ام بغرفتك، وان شاءت قتلتك، فلديها صواريخها الخاصة.

يوم الجمعة ١٣ أكتوبر ٢٠٢٤، تم نزوحنا ومئات الآلاف الى الجنوب، لان الشمال اصبح منطقة حرب، لذلك ذهبت انا والعائلة الى دير البلح. لا اعلم لماذا وقتها وانا استقل السيارة بصحبة العائلة جاء في بالي كوريا الشمالية، وكوريا الجنوبية، لماذا هناك شمال وجنوب؟ الشمال والجنوب حكاية لا تنتهي.

اعتقدنا ان نزوحنا سيستمر لأيام قليلة فقط، ولكن ها نحن ندخل بالشهر السابع ولا زلنا نحلم بالعودة في كل يوم وساعة ولحظة، ولأول مرة ادرك المعني الحقيقي لوجع والدي حينما كان يحدثني عن البلاد وحنينه الدائم للعودة. البيت ليس جدران وارض فقط، انه جبال من الذكريات، وسهول من الحنين، وبحر من ذكريات الطفولة وعنفوان الشباب. البيت هو الوطن الصغير الذي يتغلغل في قلبك ووجدانك، وتظل تغرق بتفاصيله بهدوء وصمت دون ان تدري.

ليس هذا ما اود الحديث عنه! ولكن في الحقيقة، ان تنجو من الموت اكثر من مرة، ان تراوغه كلاعب كرة قدم ماهر، مرارا وتكرارا، وتستطيع النجاة، فهذا شيء رائع وجميل وبه كثير من الحظ. أما ان تموت دون انذار، وهكذا على غفلة، يدخل بك هدف، يقطعك الى أجزاء، او يبقيك تحت الركام، تتحلل ببطء او تتبخر مثل العديدين الذين تبخروا ولم يجدوا منهم شيئا قط. تبخروا في الوقت والزمان والتاريخ والجغرافيا والفيزياء الخطأ، فهنا لنا وقفة وارفعه وبشدة.

في الحقيقة كثيراً ما تعبت من الدنيا، وأكثر من مرة تمنيت الموت، ولكن حينما تشعر ان الموت يقتحمك، يغتصبك، يهدد وجودك، يُفرض عليك انت والعائلة - العائلة التي افنيت عمرك كله تضحي من اجلها - فهذا شيء آخر لا احد يستطيع تحمله. يجب ان أعيش، وأتحدى الموت، واظل حياً، وادافع عن حياتي واسرتي حتى آخر لحظة من عمري. ولكن كيف ننجو من هذا الكم من حمم جهنم التي تلقى علينا من السماء؟ لو كان الأمر بهذه السهولة وباستطاعة الناس ان تنجو، لما مات وأصيب مئات الآلاف من البشر.

كلما ذهبت الى السوق، اصادف أحد الاصدقاء من المخيم الذي اعرف كل ساكنيه. دوماً ابادر بالسؤال له ان يطمئنني عن عائلته والجيران وأهل المخيم. فيبدأ فوراً بسرد اسماء الذين استشهدوا، والذين فقدوا واصيبوا، وتقريباً لي ذكريات مع معظم اهالي المخيم. ولذلك فور ذكره للأسماء تبدأ صورهم تتقافز امام عيوني، مبتسمين كعادتهم، واسمع أصواتهم مرحبين بي.
آه يا اصدقائي الاعزاء غادرتم اماكنكم بسرعه، كيف سيعود المخيم دونكم، والحزن اصبح مستوطناً في كل ركن وزاوية وشارع بالمخيم.

تبدأ دموعي بالانهمار رغماً عني.. من قال ان الدموع تجف؟! كلا! الدموع لا تجف ابداً، العواطف تجف اما الدموع فلا تجف. اذا كان هناك عاطفة تحرك الوجدان فسوف تظل الدموع تنهمر، كحليب الأم. تظل الام ترضع طفلها حتى لو صار عمره عشرة أعوام، مادامت تملك العاطفة والحب يظل ينمو بحضنها. الفرق بين حليب الام والدموع ان حليب الام يساعد على النمو ويجعل الطفل يكبر، اما الدموع فسيلانها يجعل الحزن يضمر. فما يتحكم بالدموع هو العاطفة لذلك تجد بعض الناس يبكي عزيزاً العمر بأكمله، لان حزنه كبير، وعاطفته لا تنتهي، فتظل دموعه تنسكب كلما اتى شخص ما على ذكره او تذكره نتيجة موقف ما.

منذ سبعة أشهر ودموعي لم تجف. كنت اعتقد ان كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، الا الحزن يبدأ كبيرا فيصغر. ولكني اكتشفت بالحرب ومع استمراره لشهور عدّة، وتعاظم المآسي التي نراها، ان الحزن قاتل. وكم من ام وأب وأخ مات حزنا وكمداً على من رحلوا!!! الحزن يكبر كما الفرح. ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، تعددت الأسباب والموت واحد.

لم استعد ابداً للموت كنت دوماً استعد للحياة، وخاصة انني بعد شهور قليلة سوف أتم الستين واستريح لأول مرة في حياتي التي قضيتها ممططياً ظهر الخيل احمل سيفي واحارب اهوال الحياة! لم استريح يوماً.. كانت لدي خطط مع زوجتي، ان نتوقف ما بين القاهرة والاسكندرية والاقصر واسوان وشرم الشيخ والعلم علمين. كنا قبل الحرب في كل ليلة نتخيل الرحلة، وعدد الايام التي سنمضيها في كل مدينة، وكيف سيكون سير الرحلة. سوف نحمل فقط شنطة كتف صغيرة لكل منا حتى نتنقل بسهولة. وكم حذرنا ابناءنا من عدم مطالبتنا بشراء اشياء لهم ونحن في مصر، حتى لا نجد انفسنا نتحرك لتلبية طلباتهم. قلنا لهم: دعوا هذا الوقت المستقطع من الحياة لنا مرة واحدة، حتى نقول اننا عشنا وسررنا يومان في هذا العمر الشقي.

لست مستعداً مطلقاً للموت الان، فما زال لدي الكثير من الأحلام، والأوقات السعيدة التي حلمت ان اقضيها بصحبة عائلتي وأصدقائي. اذهب بعيداً ايها الموت، فأنا مصر على الحياة! وكما قال شاعرنا الكبير محمود درويش على هذه الأرض ما يستحق الحياة، انا أضيف، تحت هذه السماء من يريد النجاة بلحظة حب، ووطن حر، وكسرة خبز، وشربة ماء. يا شبح الموت غادر سماءنا، الم تشبع بعد من قطف كل تلك الارواح البريئة؟!

هل من أحد يخبرنا كم هو ثمن حريتنا حتى ندفعه وننتهي؟! الا يكفي كل هذا القهر، والألم الممتد منذ اكثر من ٧٥ عاماً والى الان! ام أن قدرنا أن نبقي دون شعوب الارض نتجرع القهر مراراً وتكراراً، ونحلم بصبح ليله لا ينتهي !!

2024/5/8
علي ابو ياسين